تخريج نصوص أرسطاطالية
فى كتاب الحيوان للجاحظ
(تابع)*

للدكتور طه الحاجرى

١٢ــ قال الجاحظ : « ومما أشبه فيه الكلب الإنسان والأسد ، أن كل واحد من هذه الأجناس إنما له بطن واحد ، وبعد البطن المعا ، إلا أن بعض بطنها أعظم من بعض ، ويناسبها فى الذى ذكرنا الذئب والدب ، فما أكثرما يناسبان الكلب ، فلذلك صارا يتناكحان ويتلاقحان وهذا قول صاحب المنطق . قال : وأمعاء الكلب أشبه شىء بأمعاء الحية »(١).

وهذا النص يشتمل ــ كما نرى ــ على نقلين عن صاحب المنطق ، وقد جاء أولهما فى سياق حكاية الجاحظ قول صاحب الكلب فى دفاعه عنه وبيان فضائله وكلا النقلين يقع ــ على مسافة غير قصيرة بينهما ــ فى الفصل الثانى عشر من الكتاب الثانى ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول ارسطو : « والحيوانات التى يتفق عدد أسنانها فى الفكين ليس لها إلا معدة واحدة ، كالإنسان والخنزير والكلب والدب والأسد والذئب والفهد (Ounos)، مما أعضاؤه الداخلية هى أعضاء الذئب ، ولكل هؤلاء معدة واحدة وبعد المعدة المعا ؛ إلا أن معدة بعضها أكبر من معدة البعض الآخر ، كالخنزير والدب مثلا .... وللحية معدة كأنها معاً واحد ، تشبه معا الكلب »(٢).

وأول ما يبدو فى المقارنة أن نقلى الجاحظ يختلفان فى مدى مخالفة الأصل ، كما نراه فى هذه الترجمة ؛ وأن التصرف فى النقل الأول أكثر وأبين ، ولعل مما يرجع إليه هذا أن الجاحظ يجىء به فى سياق خاص ، ليستشهد به على غرض

(*) القسم الأول من هذا البحث فى الجزء السادس والسابع من مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية
(١) الحيوان ٢ : ٢١٥
(٢) 189—183 ب ٤ ، ٧.

بعينه ، كما قد يمكن القول بأنه من أجل ذلك اغفل ذكر الخنزير فيما أورد ، وإن كنا نلاحظ سقوط كلمة الخنزير أيضاً (وكذلك الحيوان الذى يمكن تسميته بالفهد) فى الترجمة العربية التى بين أيدينا لكتب أرسطو فى الحيوان ، وهى ترجمة قديمة مجهولة الصاحب ، بعنوان « معرفة طبائع الحيوان البرى والبحرى » ، من مخطوطات مكتبة المتحف البريطانى ، وها هو ذا نص عبارتها فى هذا الموضع :

« فأما الحيوان الذى له أسنان فى الفك الأعلى والفك السفلى ، فله بطن واحد مثل الإنسان والأسد والكلب والدب والذئب ، فلجميع هذه الأصناف من أصناف الحيوان بطن واحد وبعد البطن المعا ، ولكن بطون بعضها أعظم من بطون غيرها مثل الخنزير والدب .... فأما بطن الحية فهو ضيق شبيه بمعا واسع ، وذلك المعا شبيه بمعا الكلب »[1] .

١٣ — قال الجاحظ : « وقال : والكلب يحلم ويحتلم ، وكذلك الفرس والحمار ، والصبى يحلم ولا يحتلم ، والثور فى هذا كله كالصبى ، ويعرف ذلك فى الكلب إذا تفزع وانبط ، وزعم أن الاحتلام قد عوين من الفرس والبرذون والحمار »[2] .

وهنا نرى القول والزعم مرة أخرى مطلقين ، ليس لهما فاعل ظاهر متصل بهما ، ولكنا إذا اعتبرنا قاعدة رجوع الضمير إلى أقرب مذكور فان أقرب مذكور هنا هو صاحب المنطق ، وليس يبعد عندنا أن يكون هو المراد ؛ وإن كانت عبارة أرسطو التى يمكن أن تكون هى المقابلة لذلك تخالفه خلافاً غير قليل ، كما نرى فى كثير من هذه المقارنات ، وهاهى ذى ، كما جاءت فى الفصل العاشر من الكتاب الرابع من تاريخ الحيوان :

« ويمكن أن يرى فوق هذا أن الإنسان ليس وحده الذى يحلم ، وإنما تحلم مثله الخيل والكلاب والبقر والغنم والمعزى وكل ذوات الأربع الولودة ، والكلاب تدل على حلمها بنباحها »[3] .

---

(١) ورقة ٣٠ ، ٣١

(٢) ٢ : ٢١٦

(٣) v. II, p. 103—104.

١٤ــ قال الجاحظ : « وإذا أراد العنكبوت السفاد جلبت الأنثى بعض خيوط نسجها من الوسط ، فإذا فعلت ذلك فعل الذكر مثل ذلك ، فلا يزالان يتدانيان حتى يتشابكا ، فيصير بطن الذكر قبالة بطن الأنثى ، وذلك شبيه بعادات الضفادع »[١] .

وقد جاء هذا النص متصلا بما قبله ملتحما به ، غير مسبوق بما يدل على أنه رواية على حدة ، ومع ذلك فهو من أصرح النصوص التي نوردها هنا انتسابا إلى أرسطو ، كما نرى من مقارنته بالنص الآتي من كلام أرسطو ، أما عبارة النسبة فأكبر الظن أنها سقطت من النسخ التي أخذت عنها هذه النسخة .

قال أرسطو : « ويتسافد العنكبوت حين يلسج خيوطه ، وذلك بالطريقة الآتية : حين تجذب الأنثى خيطاً من الخيوط المشدودة من وسط النسيج ، يجذبه الذكر من الناحية الأخرى ، وبتكرار هذه الحركة مرات عدة ، يتدانيان ويتحدان من الخلف ، واستدارة بطنهما تيسر لهما هذا النوع من السفاد الذي هو أوفق لهما »[٢].

فالنصان ــ كما نرى ــ يتوافقان توافقاً كبيراً ، وإنما يختلفان في بعض الجزئيات البسيطة ، ومن هذه المقارنة يخيل إلينا أن كلمة « جلبت » في النص الأول مصحفة عن كلمة « جذبت » ، كما هو صريح المعنى في النص الثاني ، وهو تصحيف قريب كثير الاحتمال .

١٥ــ قال الجاحظ : « قال : ومما يعد للكلاب أنها كثيراً ما تلقح وتلقح لحال الدفء أو الخصب ، والكلب والخنزير في ذلك سواء ، ولا يكاد غيرهما من الأصناف يتلاقح في ذلك الزمان »[٣] .

وحق القول في هذه العبارة أن يكون لصاحب الكلب الذي يحكي الجاحظ ما يجريه على لسانه من مآثر الكلاب ، ولكن الأصل فيما حكى الجاحظ من ذلك هنا يرجع إلى صاحب المنطق ، فيما أورده في الفصل الثامن من الكتاب الخامس ، من تاريخ الحيوان ، حيث أدار الكلام عن زمن اللقاح ، وهو فصل الربيع

(١) ٢ : ٢١٦
(٢) v. II, p. 142.
(٣) ٢ : ٢١٨

عند أكثر الحيوانات ، والخريف والشتاء عند بعضها ، فلكل زمن معين لا يلقح فى غيره ، إلا الإنسان فله دونها ميزة أنه يلقح فى كل فصل ، ثم يعقب على ذلك بقوله :

« وبين الحيوانات التى تعيش مع الإنسان عدد لا بأس به مثله فى هذا ، بسبب المقام الدافىء والغذاء الوفير ، ولا سيما القصيرة مدة الحمل منها ، مثل الخنزير والكلب والطيور التى تبيض فى معظم الأوقات » (١).

فإلى هذه الفقرة من كلام أرسطو ترجع عبارة الجاحظ التى يذكرها على لسان صاحب الكلب ، وبهذه الفقرة الواضحة نستطيع أن نزيل الغموض الذى يسود تلك العبارة ، ويكاد يجعلها غير مفهومة ، فنستطيع أن نتبين المعنى المراد بها على وجه مستقيم ، وبذلك يبدو جلياً أن عبارة الجاحظ على هذه الصورة التى بين أيدينا قد عانت شيئاً من السقط أو التحريف جعلها على هذا النحو من الانبهام والاضطراب ، وذلك إلى جانب ما قد يكون من سوء الترجمة التى صدر الجاحظ فى هذا الموضوع عنها ، وأكبر الظن أن سيكون لهذه الفقرة من كلام أرسطو أثرها فى تصحيح عبارة الحيوان هذه ، باعتبار مثل هذه المقارنة أداة من أدوات نقد النصوص .

١٦ــ قال الجاحظ : « والكلب كلما كان أسن كان صوته أجهر وأغلظ »(٢)، وقد جاءت هذه العبارة فى كلام الجاحظ غير ملسوبة ، وفى كلام أرسطو ما يناظرها مناظرة تكاد تكون تامة ، وان كنا لا نستطيع القطع ــ بالرغم من هذه المشابهة ــ بأن عبارة الجاحظ مأخوذة عن كتاب أرسطو ، إذ كان من المحتمل أنها تعبر عن ملاحظة عامة ، وها هى ذى عبارة أرسطو :

« والكلاب يصير صوتها أغلظ حين تهرم » (٣).

١٧ــ وها هو ذا فصل كبير منقول بنصه عن أرسطو ، وإن لم يسبقه ما يدل على هذا النقل :

٢ v. II, p. 144

(٣) ٢ : ٢١٨

(٣) v. II, p. 164

قال الجاحظ : « والكلاب أجناس كثيرة : الكلب السلوق يسفد إذا كان ابن ثمانية أشهر ، والأنثى تطلب ذلك قبل الثمانية ، وذلك عند شعور الذكر ببوله ، والكلبة تحمل من نزو واحد .

وقد عرف ذلك الذين عرفوا الكلاب ، وحضروا ليعرفوا ذلك ، قال : والكلبة السلوقية تحمل سدس السنة ستين يوما ، وربما زادت على ذلك يوما أو يومين ، والجرو إذا وضع يكون أعمى اثنى عشر يوما ثم يبصر ، والكلبة تسفد بعد وضعها فى الشهر الثانى ، ولا تسفد قبل ذلك ، ومن اناث الكلاب ما تحمل خمس السنة يعنى اثنين وسبعين يوما ، وإذا وضعت الجراء تكون عمياء اثنين وعشرين يوما ، ومن أصناف الكلاب مايحمل ربع السنة ، اعنى ثلاثة أشهر ، وتضع جراء وتبق كذلك سبعة عشر يوما ، ثم ترضع جراءها على عدد ايامها التى لاتبصر فيها ، وزعم أن اناث الكلاب تحيض فى كل سبعة أيام ، وعلامة ذلك ورم أثفارها ؛ ولا تقبل السفاد فى ذلك الوقت ، بل فى السبعة التى بعدها ، ليكون ذلك تمام اربعة عشر يوما اكثر مايكون ، وربما كان كذلك لتمام ستة عشر يوما ، قالوا : واناث الكلاب تلقى بعد وضع الجراء رطوبة غليظة بلغمية ، وإذا وضعتها بعد الجراء اعتراها هزال ، وكذلك عامة الاناث ، ولبنها يظهر فى اطبائها قبل أن تضع بخمسة أيام اكثر ذلك ، وربما كثر اللبن فى أطبائها قبل ذلك بسبعة أيام ، وربما كان ذلك فى مقدار أربعة أيام ، ولبنها يظهر ويجود إذا وضعت من ساعتها . قال : فأما السلوقية فيظهر لبنها بعد حملها بثلاثين يوما ، ويكون لبنها أول ما تضع غليظا ، فإذا أزمن رق ودق ، ولبن الكلاب يخالف لبن سائر الحيوان بالغلظ ، بعد لبن الخنازير والأرانب ، وقد تكون علامة مبلغ سفادها مثل ما يعرض للنساء من ارتفاع الثديين ، ومعرفة ذلك عسيرة ، وهذه علامات تظهر لأناث الكلاب ، وذكورة الكلاب ترفع ارجلها وتبول لتمام ستة أشهر ، ومنها مالا يفعل ذلك إلى أن يبلغ ثمانية أشهر ، ومنها ما يعجل قبل ذلك . قال : ونقول بقول عام : ان الذكور تفعل ذلك إذا قويت ، فأما الاناث فهى تبول مقعية ، ومنها ما تشغر . واكثر ما تضع الكلبة اثنى عشر جروا ، وذلك فى الفرط ، واكثر ذلك الخمسة والستة ، وربما وضعت واحدا ، فأما اناث السلوقية ، فهى تضع ثمانية اجراء ؛ واناثها وذكورها تسفد ما بقيت . ويعرض للكلاب السلوقية عرض خاص : وهى انها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد .

وذكورة السلوقية تعيش عشر سنين، والاناث تعيش اثنتي عشرة سنة، وأكثر أجناس الكلاب تعيش اربع عشرة سنة، وبعض الاجناس تبق عشرين سنة، قال: واناث الكلاب اطول اعمارا من الذكور، وكذلك هي في الجملة، وليس يلقى الكلب من اسنانه سنا ما خلا النابين، وانما يلقيها إذا كان ابن اربعة أشهر، قال: ومن أجل ان الكلاب لاتلقى غير هذين النابين يشك بعض الناس انها لا تلقى سناً البتة. (١).

وهذا الفصل يوافق الفصل العشرين من الكتاب السادس، من تاريخ الحيوان. وها هي ذي ترجمته:

« اجناس الكلاب كثيرة، وكلاب لقونه تستطيع أن تسفد، وإناثها يمكن أن تسفد، في الشهر الثامن، وذلك في الوقت الذي يأخذ فيه بعضها في رفع رجله من أجل البول، والكلبة تحمل من نزو واحد، يدل على هذا بوضوح النزو المختلس لهذه الحيوانات، فالذكر فيه يلقح الانثى دون أن ينزو عليها غير مرة واحدة، والكلبة اللقونية تحمل سدس العام، يعني ستين يوما، وإن حدث أحيانا أن تزيد على ذلك أو تنقص عنه يوما أو يومين أوثلاثة أيام. ومتى ولدت الجراء ظلت اثنى عشر يوما دون أن تبصر، وبعد أن تضع الكلبة تظل ستة أشهر لا تستقبل الذكر، وهي لاتستقبله قبل ذلك. ومن اناث الكلاب ما تحمل خمس السنة، يعني اثنين وسبعين يوما، وجراؤها تظل الايام الأربعة عشر الأولى دون أن ترى، وأخرى تحمل ربع العام، يعني ثلاثة أشهر كاملة، وجراؤها تظل عمياء مدى سبعة عشر يوما، ويبدو أن هذا يستمر المدة التي تكون فيها الكلاب نفساء. وتحيض الكلاب سبعة أيام، ويكون مع هذا تورم اثفارها، وهي لا تقبل السفاد خلال ذلك الوقت، فهي انما تقبله في السبعة الأيام التالية. ويمكن القول، بصفة عامة، أن الكلاب تبق اربعة عشر يوما نفساء، ومنها ما تظل كذلك ستة عشر يوما. والمادة التي تصحب الوضع تخرج في نفس الوقت الذي تخرج فيه الجراء، وهي غليظة بلغمية، وبعد أن يضع الحيوان لا تتناسب كمية هذه المادة مع جرمه. ولبن اناث الكلاب يظهر بصفة تامة قبل الوضع بخمسة أيام، واحيانا سبعة أيام،

---

(١) ٢ : ٢٢٠ - ٢٢٢

وفى بعض الأحيان اربعة فقط ، ومنذ تضع يصير لبنها جيدا . والكلاب اللقونية يظهر لبنها بعد سفادها بثلاثين يوما ، ويكون أول أمره غليظا ، ثم يصفو مع الزمن ، وبمقارنة لبن الكلاب فى الغلظ بلبن الحيوانات الأخرى يجىء لبن الكلاب بعد لبن الخنازير والأرانب ، والذى يدل على انه قد حان الوقت الذى يمكن أن تسفد فيه اناث الكلاب أن يظهر على اثدائها شىء من الانتفاخ والمرونة ، كما فى الجنس البشرى ، ومع هذا فإن من العسير أن يعرف هذا العرض الضعيف جدا ، إذا لم يلاحظ مرارا ، وهو لا يلاحظ إلا عند الاناث ، أما الذكر فلاشىء من ذلك ، ويرفع الذكر رجله عند البول عادة عندما يبلغ ستة أشهر ، وبعضها لا يفعل ذلك إلا بعد هذه الفترة عندما يبلغ ثمانية أشهر معدودة ، وبعضها يفعله قبل الستة الأشهر ، والحق أنها تبول على هذه الصورة حين تكون لديها القوة على النزو ، وكل الاناث تبول مقعية ، ومع ذلك فقد رئى بعضها تبول وهى ترفع رجلها أيضاً . وأكثر ما تضع الكلبة اثنى عشر جروا ، فأما عادة فليس إلا خمسة أو ستة ، ويذكر أن منها ما وضعت واحداً فقط ، فأما الكلاب اللقونية فتصل جراؤها عادة إلى ثمانية ، ويمكن أن تسفد اناثها ، وكذلك ذكورها ، مدى الحياة وللكلاب اللقونية خاصية تمتاز بها ، وهى أنها كلما تعبت كانت أقوى على السفاد من التى لم تتعب ، وذكورة هذا النوع من الكلاب اللقونية تعيش عشر سنين واناثها تعيش إلى اثنتى عشرة ، أما أكثر الكلاب الأخرى فتعيش أربع عشرة أو خمس عشرة ، وأحياناً عشرين ..... وإذ كانت ذكورة الكلاب اللقونية تعمل أكثر ، فإن إناثها جديرة أن تعيش أكثر ، والأمر ليس بهذا الوضوح فى الأجناس الأخرى ، ومع ذلك فالذكور تعيش أكثر من الاناث ، والكلب لا يفقد من أسنانه إلا الأنياب ، ولكن الذكورة والإناث تفقدها فى الشهر الرابع على السواء ، وإذ كانت هذه الأسنان هى وحدها التى تفقدها الكلاب ، فقد كان ذلك سبباً فى رأيين متعارضين ، فالبعض يزعم أن الكلب لا يفقد شيئاً من أسنانه ، لأنه من الصعب أن ترى الأنياب ، ويخيل للآخرين ، إذ كانوا يرونه يفقد هذا النوع من الأسنان ، انه يفقد أيضاً جميع ما عداها »[1].

---

(1) v. II, p. 356—361.

ومن مقارنة هذين النصين يبدو واضحاً كل الوضوح أنهما شيء واحد ، وبذلك نستطيع القطع دون تردد أن ذلك الفصل فى حيوان الجاحظ منقول عن حيوان أرسطو ، وإن خلا صدره من الكلمة المألوفة فى هذا الموطن : « قال صاحب المنطق » . والتوافق هنا بين النصين لا ينبغى أن نطمع فى أمثل منه ، مع هذا التفاوت البعيد المفروض فى الملابسات التى لابست كلا منهما .

ولم يكد نص الجاحظ يغفل إلا بعض التفصيلات أو الجزئيات الصغيرة فى نطاق ضيق ، كالذى جاء فى سياق الكلام عن عمر الكلب من الإشارة إلى هومير ، حين جعل كلب أوليس ، فى الأوديسة ، يموت فى العشرين . ولم يكد نص الجاحظ يخالف النص الذى أورده سانتيلير وقدمنا ترجمته إلا فى بعض ما يقع فيه الخلاف عادة بين نسخة ونسخة ، بتفاوت الأصول واختلاف القراءة وتغاير الفهم وتعاور الناسخين إلى غير ذلك ، مما لا مناص من أن يمتحن به مثل هذا الأثر ، وذلك مثل ما فى نص الجاحظ من أن الكلبة تسفد بعد وضعها فى الشهر الثانى ، ومخالفة النص الآخر بوضع كلمة السادس مكان الثانى .

ومن ذلك جعل المدة التى يظلها الجرو المولود عن حمل مدته خمس السنة أعمى ، اثنين وعشرين يوما ، فى نص الجاحظ ، وهى فى النص الآخر أربعة عشر .

وكالقول فى مدة حمل الكلاب اللقونية ، فهى فى نص الجاحظ ستون يوما ، وربما زادت يوماً أو يومين ، وهى كذلك ستون يوما فى نص سانتيلير ، ولكنها ربما زادت أو نقصت يوما أو يومين أو ثلاثة ، ومع ذلك فالمخطوطات اليونانية التى كانت بين يدى العلماء الأوربيين تختلف فى هذه الجزئية فيما بينها ، فقد نص سانتيلير على أن منها ما لم تجىء فيه كلمة « الثلاثة » ، كما هو فى نص الجاحظ .

ومثل هذه الاختلافات إنما ينشأ عن طبيعة المخطوطات وما يكون معها من اختلاف القراءة اختلافاً يبعد مداه مع الزمن ، سواء فى ذلك المخطوطات اليونانية التى أخذ عنها هنا وهنا ، أم المخطوطات العربية ، إلى أن وصلت إلينا .

ومن هذه الاختلافات هنا ما قد يرجع فى أكثر الأمر إلى غموض النص اليونانى ، من ذلك قول أرسطو عن المادة الغليظة اللعمية التى تخرج مع ولادة الجراء انها غير متناسبة فى كميتها مع جسم الكلبة ، فقد علق سانتيلير على هذا بأن

العبارة فيه ناقصة غامضة ، وأورد ما اقترحه فيها أوبير وڤيمر (Oubert et Wimmer) ، مما لا نعرض له ، إذ ليس من شأننا هنا أن نقضى فى مثل هذا الموضوع ، ولكن الأمر الذى نريد أن نقرره هو أن اختلاف الترجمة العربية فى نص الجاحظ له ما يبرره .

ومن هذا القبيل ما لاحظه سانتيلير من تناقض فى عبارة أرسطو ، فى تحديد مدة نفاس الكلبة أولا بسبعة عشر يوما ، ثم جعله بعد ذلك بقليل من الأسطر أربعة عشر يوما ، أما نص الجاحظ فلم يعرض للنفاس ، وإنما السبعة عشر يوما عنده هى الأيام التى ترضع فيها الكلبة جراءها وهى عمياء ، وأما الأربعة عشر فهى المدة التى لا تقبل فيها السفاد ، فلا تناقض .

ومن يدرى فلعل النص العربى يمكن أن يقدم شيئاً من المعونة فى تحرير نص أرسطو . وإلى جانب هذا الرجاء أن يوضع نص الجاحظ بين يدى العلماء المعنيين بحيوان أرسطو ، وأن يجدوا فى ذلك أداة جديدة لتحرير نصه وتحقيق عبارته فإننا ، نرى أن نص أرسطو فى ترجمته الفرنسية التى بين أيدينا يمكن أن يقدم لنا عوناً ملحوظاً فى تحرير النص العربى ، فى حيوان الجاحظ ، وقد رأينا قبل أمثلة لذلك ، ومن هذه الأمثلة كلمة « السلوقية » المصحفة عن « اللقونية » ، وهذا المثل يتكرر هنا مرة أخرى.

ومن ذلك أيضاً كلمة « بقيت » فى هذه الجملة من نص الجاحظ : « وهى أنها كلما بقيت كانت أقوى على السفاد » ، فظاهر انها نابية قلقة فى مكانها ، وإنما هى مصحفة عن « تعبت » كما هو صريح المعنى فى عبارة أرسطو ، ومرد هذا التصحيف هو قرب الصورة الخطية فى الكلمتين ، ثم وجود كلمة « بقيت » قبلها ببضع كلمات .

ومن العبارات المضطربة التى يبدو اننا نستطيع بالرجوع إلى نص أرسطو أن نزيل اضطرابها ونردها إلى ما هو أشبه ، هذه العبارة : « ولبنها يظهر ويجود إذا وضعت من ساعتها » ، ذلك أنه يقول قبل ذلك مباشرة أن لبنها يظهر فى أطبائها قبل أن تضع بخمسة أيام أو سبعة أو أربعة ، فكلمة « يظهر » هنا تجعل سياق الكلام مضطرباً متناقضاً ، فإذا رجعنا إلى النص الآخر بدا بجلاء أن هذه الكلمة « يظهر » ليست إلا تصحيفاً لكلمة « يصفو » التى تقابل كلمة (éclaircit) فى الترجمة الفرنسية لنص أرسطو ، وبذلك يستقيم الكلام ويصح السياق ويتفق المعنى هنا وهنا .

١٨ــ قال الجاحظ : « قال : وللكلاب ثلاثة أصناف من المرض ، وأسماؤها : الكلب بفتح اللام ، والذبحة ، والنقرس . والكلب جنون ، فإن عرض لشيء من الحيوان كلب أيضاً أماته ، ما خلا الانسان ، وهو داء يقتل الكلاب ، وتقتل به الكلاب كل شيء عضته ، إلا الإنسان فإنه يعالج فيسلم »[1].

وقال أرسطو فى الفصل الثانى والعشرين من الكتاب الثامن ، من تاريخ الحيوان ، وقد جعله للكلام عن بعض الأمراض التى تصيب الحيوان :

والكلاب يمكن أن تصاب بثلاثة أمراض : الكلب (la rage) ، والذبحة (l'esquinancie) والنقرس (la goutte) ، والكلب يحدث لها السعار ، وحين تعض فكل الحيوانات التى تعضها تسرى إليها عدوى الكلب ، ما عدا الإنسان ، وداء الكلب يقتل كل الحيوانات التى تعضها الكلاب ، كما يقتل الكلاب ، إلا الإنسان »[2] .

وإن مجرد وضع النصين الواحد بإزاء الآخر يبعث على القول بأن نص حيوان الجاحظ مأخوذ عن حيوان أرسطو ، وأن القول فى الأول ينبغى أن يكون مسنداً إلى صاحب المنطق . وإن كان ثمة خلاف أصيل بين النصين ، إذ كان أولهما يذهب إلى أن الإنسان يصاب بالكلب ، ولكن الكلب لا يقتله ، كما يقتل الحيوانات الأخرى ، بل يعالج فيسلم ، فى حين يقرر الثانى أن عدوى الكلب لا تسرى إلى الإنسان كما تسرى إلى سائر الحيوان

وقد علق سانتيلير على هذا الذى قرره أرسطو بأنه خطأ من الصعب أن يعرف كيف ارتكب ، إذ كان من المحتمل جداً — كما يقول — أن إصابات كثيرة بالكلب حدثت فى بلاد اليونان ، كما تحدث لدينا الآن . ونحن نتساءل بعد عن مرد هذا الخلاف بين النص العربى والنص الآخر ، أهو تصرف من المترجم العربى ، ليوفق بين كلام أرسطو وبين ما هو مشاهد مقرر ، أم أن مرجع الخلاف إلى تحريف فى النص اليونانى الذى كان بين يدى المترجمين المتأخرين ؟

---

(١) ٢ : ٢٢٣

(٢) v. HL p. 101–102.

١٩ــ قال الجاحظ : « قال : واناث الكلاب السلوقية أسرع تعلماً من الذكورة . قال : وجميع أصناف السباع ذكورتها أجرأ وأمضى وأقوى ، إلا الفهدة والذبة »[١].

ويناظر هذا ما يذكره أرسطو فى الفصل الأول من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، فى كلامه عن طبائع الحيوان ، والفروق بينه فى ذلك ، إذ يقول :

« والأنثى دائماً ألطف طبعاً ، وأسرع استئناساً ، وأطوع فى التعلم . . . وكذلك اناث الكلاب اللقونية أفضل طبيعة من الذكورة . . . والاناث عامة أقل شجاعة من الذكور ، إلا جلس الدب والفهد ، إذ يبدو أن الأنثى أجرأ »[٢].

وبالرغم من أن ضمير « قال » فى نص الجاحظ لا يمكن فى صناعة الكلام أن يرجع إلى « صاحب المنطق » ، إلا أنه لا بد من اعتباره فاعل فعل القول هنا أيضاً ، فالمشابهة بين النصين وثيقة دقيقة ، إلا فى وضع كلمة السلوقية موضع اللقونية ، وذلك ــ كما رأينا ــ تصحيف مطرد ؛ وإلا فى وضع كلمة « الذبة » فى نص الجاحظ فى مقابل كلمة « الدب » فى النص الآخر ، وذلك عندنا تصحيف آخر ، فكلمة « الذبة » انما هى فى الأصل « الدبة » جمع دب ثم أخذت فى قلم الناسخ هذه الصورة ، وكذلك جاءت العبارة فى الطبعة الأولى « الا الفهود والذبة » ، أما النشرة الثانية فرأت أن حق الكلام أن يكون « إلا الفهد والذبة » حتى تكون الكلمتان معاً فى صيغة المفرد ، فكان فى ذلك « التصحيح » للكلمة الأولى تثبيتاً لتصحيف الكلمة الثانية ، وبذلك جاء هذا الخلاف بين النصين ، ولا خلاف فى الحقيقة .

٢٠ــ قال الجاحظ : « وصاحب المنطق يزعم أن رؤية فرخ العقاب أمر صعب وشيء عسير »[٣] .

ولعل الجاحظ يشير هنا إلى ما ذكره أرسطو فى الفصل الثانى من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، إذ يقول :

« ويزعم أحياناً بعض الناس أن أحداً لم ير فراخ العقاب ولا وكره »[٤].

(١) ٢ : ٢٣١
(٢) v. III. p. 129 - 130
(٣) ٢ : ٢١٩
(٤) v. III. p. 173

٢١ــ قال الجاحظ : « قال : ويوضع بيض الطاووس تحت الدجاجة ، وأكثر ذلك لأن الذكر يعبث بالأنثى إذا حضنت . قال : ولهذه العلة كثير من اناث طير الوحش يهربن ببيضهن من ذكورتها ، ثم لا تضعه بحيث يشعر به ذكورتهن ، قال : ويوضع تحت الدجاجة بيضتان من بيض الطاووس ، لا تقوى على تسخين أكثر من ذلك . على أنهم يتعهدون الدجاجة بجميع حوائجها خوفا من أن تقوم عنه فيفسده الهواء . قال : وخصى ذكور أجناس الطير يكون فى أوان أول السفاد أعظم ، وكل ما كان من الطير أعظم سفادا ، كانت خصيته أعظم ، مثل الديك والقبج والحجل ، وخصية العصفور أعظم من خصية ما يساويه فى الجثة مرتين[1] ».

وكذلك فى هذا النص أيضاً ينبغى أن تكون كلمة «صاحب المنطق» قد سقطت منه ، فهو مأخوذ عن أرسطو ، فى الفصل التاسع من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان ، حيث جعل الكلام عن الطاووس ، وذلك إذ يقول :

« والذين يربون الطواويس يجعلون إلى الدجاج حضن بيضها ، لأن الذكر قد يكسره حين يطير على الأنثى وهى تحضنه ، ولهذا السبب نفسه تطرد الأنثى ــ فى بعض أنواع الطيور الجوارح ــ الذكر ، لتبيض وتحضن ، وأكثر ما يجعل للدجاج حضنه بيضتان من بيض الطاووس ، إذ قلما تستطيع أن تحضن وتفقس أكثر من ذلك . وحتى لا تدع الحاضنة الحضانة وتخرج من العش ، يعنى بوضع طعامها قريباً منها . وخصى الطير تكون فى ابان السفاد أكبر بصورة واضحة ، وما كان منها أكثر سفادا كالديكة والحجل (les perdrix) تكون خصيته أكثر نمواً ، وكذلك هى لديه دائماً أعظم ، فأما الطيور التى لا تتساند دائماً فخصاها أصغر »[2].

وليس لنا من تعليق هنا إلا أن نشير إلى ما لاحظه سانتيلير من أن الكلام عن خصى الطير يبدو أنه فى غير موضعه ، وهذه ملاحظة حقة ، ومع هذا فذلك هو وضع هذه الفقرة متصلة بما قبلها فى الترجمة العربية القديمة ، كما هو فى النص اليونانى الذى ترجم أخيراً ، لا فرق فى هذا بينهما ، مما يضعف معه احتمال القول بأنها دخيلة فى هذا المكان ، مقحمة عليه من مكان آخر .

(١) ٢ : ٣٤٤ — ٣٤٥

(٢) v, II. p. 290- 291

٢٢ - - قال الجاحظ - - فى سياق ايراده حجة صاحب الكلب على صاحب الديك ، ورده عليه ما ذكره من انفراد الفروج بأنه يخرج من البيضة كاسياً يكفى نفسه - - : «فقد زعم صاحب المنطق أن ولد العنكبوت يأخذ فى النسج ساعة يولد»[١].

وهذا الذى يحكيه الجاحظ عن أرسطو جاء فى الفصل السادس والعشرين من الكتاب التاسع ، من تاريخ الحيوان ، إذ يتحدث عن ذكاء الحيوان وصناعته ، ويقول :

« والعناكب تستطيع أن تنتج نسيجها بعد ولادتها مباشرة »[٢].

الجزء الثالث

٢٣ - - قال الجاحظ - - بعد أن أورد تفسير قول عمر بن الخطاب لأبى مريم الحنفى : والله لأنا أشد بغضا لك من الأرض الدم ، بأن الدم الجارى من كل شىء لايغيض فى الأرض - - : « الا أن صاحب المنطق قال فى كتابه فى الحيوان : كذلك الدماء ، الا دم البعير »[٣] . وفى موضع آخر نقل هذا المعنى مرة أخرى عن أرسطو ، فقال : « وزعم صاحب المنطق ان الأرض لاتشرب الدم الا يسيرا من دماء الأبل خاصة »[٤].

وظاهر أن الجاحظ لم ينقل نصا بحروفه ، وانما هو معنى عرفه فى كتاب الحيوان لارسطو ، كذلك لم نجد هذا الكلام بنصه ولا قريبا منه ، وانما وجدنا ما يدل عليه ، وقد جاء ذلك فى غير موضع ، مرة فى كتاب تاريخ الحيوان ، ومرة أخرى فى كتاب اعضاء الحيوان .

وها هو ذا ماجاء فى الفصل السادس من الكتاب الثالث من تاريخ الحيوان ، فى الحديث عن الالياف ، وما يوجد فى الدم منها ، والوظيفة التى تؤديها :

(١) ٢ : ٣٥٩
(٢) cf. III. p. 232 -233.
(٣) ٣ : ١٣٧
(٤) ٤ : ٢٠١

« وحين تفصل هذه الألياف من الدم لا يتخثر ، فانما يتخثر حين تترك فيه ، وهي توجد فى دم جميع الحيوانات تقريبا ، ولكنها لاتوجد فى دم الأيل (Le cerf) ، والتيس البرى (Le chevreuil) ، وما يسمى (Bubale) وما اليها ، فدم هذه الحيوانات لايتخثر كغيرها ، على أن دم الأيل يتخثر قليلا مثل دم الأرانب »[1].

ومثل هذا ماجاء فى الفصل الرابع من الكتاب الثانى ، من أعضاء الحيوان[2].

فمن هنا — فيما يبدو — أخذ الجاحظ كلامه عن الدم فيما صدر به عن صاحب المنطق ولكن مابال دم البعير الذى استثناه الجاحظ من صفة الدم عامة ، ولم يشر أرسطو من قرب أو من بعد إلى هذا الحيوان ؟ هنا — فيما نحسب — موضع تصحيف وتصرف انتهيا بكلام الجاحظ إلى هذا الوضع الغريب الذى يقطع الصلة بينه وبين صاحب المنطق فيما يدعى نسبته اليه .

فكلمة « البعير » انما وضعت فى نصنا الأول بدلا من كلمة « الايل » التى جاءت فى النص الآخر ، وليست كلمة الابل هذه إلا تصحيفا قريبا لكلمة « الأيل » التى جاءت فى كلام أرسطو الذى نقلناه هنا .

٢٤ — قال الجاحظ : « قالوا : والدجاجة تبيض فى كل السنة خلا شهرين ، ومن الدجاج ماهو عظيم الجثة ، يبيض بيضا كبيرا ، وما أقل مايحضن ، ومن الدجاج ما يبيض ستين بيضة ، واكثر الدجاج العظيم الجثة يبيض اكثر من الصغير الجثة . قال : أما الدجاج التى نسبت إلى ابى ريانوس الملك ، فهو طويل البدن ، ويبيض فى كل يوم ، وهى صعبة الخلق وتقتل فراريجها ، ومن الدجاج الذى يربى فى المنازل ما يبيض مرتين فى اليوم ، ومن الدجاج ما إذا باض كثيرا مات سريعاً لذلك العرض »[3].

(١) v. 1, p. 252

(٢) v. 1, p. 107

(٣) ٣ : ١٦٩ — ١٧٠

وهذا النص تصدره قالوا بضمير الجمع ، وتتوسطه قال بضمير المفرد ، من غير أن يعرف مرجع الضمير ، وانما هو — فيما نرى — صاحب المنطق فى النص كله ، كما يظهر من مقارنته بهذا النص التالى من كلام أرسطو ، فى الفصل الأول من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان :

« ويمكن القول بأن الدجاجة تبيض فى كل السنة ، فيما عدا شهرين حول الانقلاب الشتوى ، ومن الدجاج العظيم الجلس ما يبلغ بيضه ستين بيضة قبل ان يحضن ، ومع ذلك فالدجاج العظيم الجلس أقل بيضاً من الدجاج العادى ، ودجاج ادريا (Adria) صغير البدن ، ولكنه يبيض كل يوم ، وهى سيئة الخلق ، وكثيرا ما تقتل فراريجها ، وهى مختلفة الألوان ، ومن الدجاج البيتى ما يبيض مرتين فى اليوم ، وقد رؤى بعضه يموت بعد هذا الخصب المفرط بقليل من الزمن »[1] .

فالنصان — كما نرى — يتناظران تناظراً لايدع موضعا للشك فى نسبة أولهما إلى صاحب ثانيهما ، بالرغم مما نرى من خلاف فى بعض الجزئيات ، يمكن أن يرد بعضه إلى التصحيف فى نص الجاحظ .

فعبارة « وما أقل ما يحضن » يبدو أنها تصحيف لعبارة « قبل ما يحضن » ، وبذلك يتفق النصان فى هذا الموضع ، وربما كان ذلك شأن كلمة « العظيم الجثة » ، أن تكون مصحفة عن كلمة « العظيم الجلس » كما هو نص عبارة أرسطو فيما رأينا .

أما التناقض بين النصين فى إنتاج الدجاج العظيم الجلس ، اذ هو فى نص الجاحظ « يبيض اكثر من الصغير الجثة (؟) » ، وفى نص أرسطو هو أقل بيضا ، فليس يبعد عندنا ان يكون ذلك من صنيع النساخ ، فوضعوا كلمة « اكثر » موضع كلمة « أقل » ، وهذا أمر معهود ، وفى هذا الموضع نفسه نرى بعض النسخ يضع فى موضع : « يبيض اكثر من الصغير الجثة » « يبيض بيضا كبيرا » ، وشتان ما بين العبارتين ، فإذا جاز مثل هذا أن يحدث ، فذلك اكثر جوازا .

(١) v. II, p. 255

ومما نراه من التصحيف أيضاً كلمة « طويل البدن » فى صفة الدجاج الذى يقول النص العربى إنه منسوب إلى أبى ريانوس ، فأكبر الظن أنها مصحفة عن « ضئيل البدن » . وليس من الصعب أن نعرف كيف تأتى للناسخ مثل هذا التصحيف .

ثم تجىء بعد ذلك كلمة « أبى ريانوس » ، وقد كتب الأب انستاس مارى الكرملى فى التعليق عليها وتحقيقها ما يلى :

« هو على الحقيقة : (أبيريونيدس) ، أى منسوب إلى (Hyperion) المسمى أيضاً (Helios) أى الشمس ، وتلفظ (عاليوس) ، وما عاليوس الا « عالى » أو « عال » كسعت بعلامة الإعراب فى كلام اليونان ، ويطلق هذا اللفظ على كل ما يراد وصفه بالعلو أو الطول أو الارتفاع ، فالدجاج (أبى ريونوس) أو (ابيريونوس) هو ما يسميه اليوم العراقيون بالدجاج الهرائى بمعنى الهروى ، لأن ديكتها جلبت من هراة ، المشهورة بحسن دجاجها وعلوها وكبرها ، فالكلمة إذن يونانية ، وقد صحفها النساخ لجهلهم اياها »[1]

وهذا الذى صنعه العلامة انستاس مارى الكرملى فى تصحيح هذه الكلمة وتخريجها هو صورة من التصحيح والتخريج اللذين لا ينبنيان على منهج علمى سديد ، وإن كانا يصدران عن معرفة واسعة وعلم غزير ، والمعرفة مهما اتسعت وتشعبت ودقت لا تغنى عن المنهج العلمى فى نقد النصوص شيئاً ، بل ربما كانت بدون هذا المنهج مزلقة ومضلة . والمنهج فى مثل ما نحن فيه هو مراجعة النص المراد تحقيقه فى أصله المأخوذ عنه ، وهذا الأصل يضع فى مقابل كلمة « أبى ريانوس » كلمة « أدريا » . ويقول سانتيلير فى التعليق على هذه الكلمة إن المخطوطات المختلفة متفقة على هذا الاسم منسوباً إليه هذا الدجاج (Adrianique) أو (Adrianes) ، وإذن فالأقرب والأشبه أن كلمة « أبى ريانوس » هذه ليست إلا تصحيفاً لكلمة « ادريانوس » ، فإذا علمنا بعد ذلك أن إحدى مخطوطات حيوان الجاحظ وأمثلها — وهى مخطوطة كبريلى — تجعل هذه الكلمة « ارذيانوس » ، لم يبق لدينا شبهة فى أن « ادريانوس » هى الأصل الذى لا معدل عنه ، وبذلك يتفق النصان فى غير تعسف ولا تكلف .

(١) الحيوان ٣ : ٥٧٨ و فى التذييل والاستدراك) .

٢٥ــ قال الجاحظ : « قال : وبيض الصيف المحضون أسرع خروجا منه في الشتاء . ولذلك تحضن الدجاجة البيضة في الصيف خمس عشرة ليلة »[١].

ونظير هذا النص عند أرسطو يقع في الفصل الثاني من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان . قال : « وحين تحضن الاناث في الصيف ، فإن الفراريج تخرج من القشر أسرع منها في الشتاء ، بتأثير الحرارة ، ولذلك تفقس الفراريج في الصيف في ثمانية عشر يوما ، وقد تحتاج في الشتاء إلى خمسة وعشرين »[٢].

ويختلف النصان قليلا : يختلفان في عدد أيام الحضانة ، فهو في نص الجاحظ الذي قدمنا خمسة عشر ، وفي الآخر ثمانية عشر ، على أن إحدى مخطوطات الحيوان تجعلها « ثماني عشرة ليلة » ، ويبغي أن تكون هي القراءة الصحيحة ، لأنها توافق نص أرسطو ، وهو الأصل هنا ، أما اختلاف التمييز لهذه المدة ، فهو يرجع إلى عادة العرب في جعل تمييز التاريخ بالليالي لا بالأيام ، وفوق هذا فإنه يبدو لنا أن في النص العربي سقطاً واضحاً في آخره ، يمكن أن يقدر على هذا النحو : « وفي الشتاء خمسا وعشرين » ، ليستقيم أول الكلام مع آخره .

٢٦ــ قال الجاحظ : « قال : وربما عرض غيم في الهواء أو رعد ، في وقت حضن الطائر ، فيفسد البيض ، وعلى كل حال ففساده في الصيف أكثر ، وأكثر ما يكون فساد البيض في الجانب . وقال : وبعضهم يسمي بيض الريح : البيض الجنوبي ، لأن أصناف الطير تقبل الريح في أجوافها ، وربما أفرخ بيض الريح بسفاد كان ، ولكن لونه يكون متغيراً ، وإن سفد الأنثى طائر من غير جنسها غير خلق ذلك المخلوق الذي كان من الذكر المتقدم ، وهو في الديكة أعم »[٣].

ويقع هذا من كلام أرسطو في الفصل الذي جاء فيه النص السابق ، قال : « وحين يحدث رعد في الوقت الذي تحضن فيه الأنثى ، فإن البيض يتغير ويفسد ، والبيض الذي يسمى أحياناً أذناب الكلاب أو بيض الذئب ([illegible])

(١) ٣ : ١٧٢
(٢) [illegible], p. 562
(٣) ٣ : ١٧٢ ـ ١٧٣

des chiens ou œufs de queue) كثير فى الصيف ، وبعض الناس يسمى أيضاً البيض الرائق (les œufs - clairs) بيض الدبور (œufs de zéphire) ، لأن الطير يبدو أنها فى ابان فصل الربيع تلتمس الرياح وتتقبلها . . . ويمكن أن يفرخ البيض الرائق ، وحتى البيض الذى جاء عن سفاد سابق يمكن أن يتحول من نوع إلى نوع آخر ، إذا سفد الأنثى ذات البيض الرائق أو الناتج عن سفاد سابق ، ذكر آخر ، قبل أن يتحول الصفار إلى بياض »[1].

وبالرغم مما بين النصين — فيما نرى — من خلاف فى غير موضع ، فإن مابينهما من توافق فى جملة الموضوع مما يلفت النظر ويدعو إلى التساؤل : أيرجع نص الجاحظ حقاً إلى ما كتبه أرسطو فى كتابه الحيوان ، أم أنه يرجع إلى طائفة من المعارف مختلطة أخذت من هنا ومن هنا ، وإن كانت ترجع فى جملتها إلى حيوان أرسطو وتصدر فى مجموعها عنه ؟

مهما يكن من أمر فإن لأرسطو أثره الواضح فى هذا النص من كتاب الجاحظ ، وإنما الشيء الذى نريد أن نقرره هنا هو أن هذا الموضع من كتاب أرسطو من المواضع التى يسودها الغموض ، كما ينص على ذلك سانتيلير فى تعليقاته ، مصرحاً بصعوبة تبين المراد من بعض ما جاء فيه وترجمته على وجه يمكن الاطمئنان إليه ، كما فى تسمية ذلك النوع من البيض باذناب الكلاب أو بيض الذنب ، فهى تسمية لم يستطع تبين معناها ، وقد قال ان من الممكن ترجمتها بأبوال الكلاب أو بيض البول ، ويبدو أن مثل ذلك الغموض تفاداه المترجم العربى بتلك العبارة العامة ، كما يرجع إلى هذا الغموض — فيما يخيل إلينا — كثير من صور الخلاف بين النصين ، وذلك إلى جانب ما تعرضت له الترجمة العربية ومخطوطات حيوان الجاحظ .

أما وضع الترجمة العربية كلمة « بيض الريح » بإزاء ما عبر عنه صاحب الترجمة الفرنسية بكلمة (œufs - clairs) ، فهذه فيما يبدو ترجمة حرفية ، كما صنع صاحب الترجمة الإنجليزية ، إذ سمى هذا النوع من البيض (wind - eggs)[2].

---

(١) v. II, p. 162 - 169

(٢) Historia Animalium : 560 *

٢٧ــ ويقول الجاحظ فى عقب النص السابق : « ويقولون : ان البيض يكون من أربعة أشياء : فمنه ما يكون من التراب ، ومنه ما يكون من السفاد ، ومنه ما يكون من النسيم إذا وصل إلى ارحامهن ، وفى بعض الزمان ، ومنه شيء يعترى الحجل وما شاكله فى الطبيعة ، فإن الأنثى ربما كانت على سفالة الريح التى تهب من شق الذكر فى بعض الزمان ، فتحتشى من ذلك بيضاً »[1].

وهذا النص ــ كما نرى ــ يعانى شيئاً من الاضطراب ، إذ تعرض فيما يظهر لبعض السقط والخلط ، فأما السقط فيظهر فى أن الجاحظ قدم الكلام بأن البيض يتكون من أربعة أشياء ، ولم يذكر غير ثلاثة ، أما أمر الحجل فليس إلا تفسيرا للحالة الثالثة .

وقد جاء حديث الحجل هذا ، عند أرسطو ، بما يكاد يكون نص ما هنا عنه ، إذ يقول ــ بعد تقريره أن اللقاح وتولد البيض أمر كثير يسير عند معظم الطير ، وبعد أن ضرب المثل لذلك بالحجل فى حال الهيج والتماس السفاد ــ :

« وانه ليمكن أن يكون الحجل تحت ريح الذكر (sous le vent du mâle) ليلقح »[2] ، ومن هذا يبدو من المحتمل جداً أن تكون كلمة : « وقال صاحب المنطق ، أو ما يشبهها سقطت قبل قوله : « ومنه شيء يعترى الحجل ».

٢٨ــ قال الجاحظ : « قال : وأما الحمام فإنه إذا قط تنفش وتكبر ونفض ذنبه وضرب بجناحيه ، وأما الأوز فإنه إذا سفد أكثر من السباحة ، واعتراه فى الماء من المرح مثل ما يعترى الحمام فى الهواء »[3].

وهذا المعنى نجده عند أرسطو فى الفصل الثانى من الكتاب السادس من تاريخ الحيوان ، ولكنه هنا مبسوط يتضمن تلك الصور الفنية ، كأنما هو الجاحظ نفسه الذى يعبر عنه ، ويصوغه ، ويرسم صوره ، أما هناك فليس إلا تسجيلا للظاهرة فى عبارة علمية موجزة مركزة ، تنتقل من العام إلى الخاص ، قال :

(١) ٣ ــ ١٧٣
(٢) v. H. p. 266
(٣) ٣ : ١٧٥

« والاناث بعد السفاد ترتعش وتهتز وتثير الغبار حولها ، وتفعل ذلك أحياناً حين تبيض ، واناث الحمام ترفع إذ ذاك ذيلها . أما اناث الأوز فتسبح فى الماء »[1].

فالمعنى الأول مشترك — كما نرى — بين نص حيوان الجاحظ ونص حيوان أرسطو ، وإن كان السياق وأسلوب الأداء مختلفين فيهما .

٢٩ — قال الجاحظ : « والحمامة ربما احتبس البيض فى جوفها بعد الوقت لأمور تعرض لها : اما لأمر عرض لعشها وأقفاصها ، واما لتتف ريشها ، واما لعلة وجع من أوجاعها ، واما لصوت رعد ، فإن الرعد إذا اشتد لم يبق طائر على الأرض واقع إلا عدا فزعا ، وإن كان يطير رمى بنفسه إلى الأرض »[2].

وقد وصل الجاحظ هذا النص ببيتين لعلقمة بن عبدة ، مستشهدا بهما على أثر الرعد هذا ، والقول فى هذا النص — أو بعضه كما سنرى — لأرسطو ، قاله أيضاً فى الفصل الثانى من الكتاب السادس ، من تاريخ الحيوان ، بعد أن ذكر أن خلق البيضة وتولد الفرخ يختلف زمنا باختلاف الطير ومقدار جثتها ، وقارن فى ذلك بين الدجاج والحمام .

ونرى أننا نستطيع بنص الجاحظ أن نفصل بين ترجمة وترجمة ، ونرجح واحدة على أخرى ، وهما ترجمة سانتيلير التى اعتدنا حتى الآن أن نكتفى بإيرادها ، والترجمة الانجليزية التى قام بها دارسى وتوورث طومسون D'arcy Wentworth) (Thompson ، إذ تختلفان فيما بينهما فى هذا الموضوع .

فأما سانتيلير فيقول ما ترجمته : « وانثى هذا النوع (الحمام) تستطيع أن تمسك بيضتها فى نفس الوقت الذى تعانى فيه وضعها ، واذا حدث ما يزعجها ، هدمت عشها بنفسها ، واذا نزعت ريشة منها ، أو أحست أى وجع آخر أو شيئاً يضايقها فانها تتماسك ، وتستطيع أن تحتفظ ببيضتها وهى توشك أن تبيضها »[3].

---

(١) v. II, p. 265 - 269

(٢) ٣ : ١٧٦

(٣) Histoire des Animaux, v. II, p. 260

وأما دارسى وتتوورث طومسون فيقول ما ترجمته : « وللحمام القدرة على استخبار البيضة فى نفس الوقت الذى تبيضها فيه . واذا أزعجت انثى الحمام بأى شىء ، كأن تزعج فى عشها ، أو تنزع ريشة منها ، أو تعانى أى ألم آخر أو اضطراب ، فانها تستطيع أن تمسك البيضة معلقة ، حتى وهى فى حالة وضعها اياها »(١).

فالترجمة الثانية جعلت الفقرة كلها فى احتباس البيضة ، وكل ما عرض لأنثى الحمام فى عشها أو نزع ريشها أو أى وجع آخر فانه علة هذا الاحتباس . وأما الترجمة الأولى فانها جعلت الحمامة هى التى تهدم عشها بنفسها ان عرض لها ما يزعجها ، واقحمت هذا بين طرفى موضوع الفقرة وهو احتباس البيضة ، مع أن انهدام العش أو ما اليه هو فى الترجمة الثانية علة من علل هذا الاحتباس ، لا شىء على حدة ؛ وهو فيها من افعال الشرط ، لا جواب لشرط آخر ونتيجة له ، كما فى الترجمة الأولى .

فذلك هو الخلاف بين الترجمتين ، وهو نفسه الخلاف بين الترجمة العربية وترجمة سانتيلير ، فالترجمة العربية توافق موافقة تامة ترجمة دارسى وتتوورث طومسون ، وهى بذلك تفصل بينهما ، وترجح هذه على الأخرى .

ثم يبقى بعد ذلك أن ما جاء فى نص الجاحظ عن الرعد واثره فى احتباس البيضة وما الى ذلك لا أثر له فى كلام أرسطو ، فهو كلام مقحم عليه ، وإن جاء متصلا به .

٣٠ — قال الجاحظ : « قال : وليس التقبيل إلا للحمام والإنسان ، ولا يدع ذلك ذكر الحمام إلا بعد الهرم . وكان فى أكثر الظن انه احوج ما يكون الى ذلك التهيج به عند الكبر والضعف » .

وبعد أن اقحم زعما للعوام عن تسافد الغربان ، وانه هو تطاعمها بالمناقير ، وعلق عليه بأنه لم ير العلماء يعرفون هذا ، قال :

---

(١) Historia Animalium, 560b (Works of Aristotle, volume IV)

« قال : وإناث الحمام اذا تسافدت أيضاً قبل بعضهن بعضاً ، ويقال إنها تبيض عن ذلك ، ولكن لا يكون عن ذلك البيض فراخ ، وانه فى سبيل بيض الريح »[1].

ويقع هذا الكلام من تاريخ الحيوان لأرسطو بعد النص السابق ، متصلا به . قال : « وللحمام فى سفاده خاصة أخرى ، ذلك أنه يقبل بعضه بعضاً حين يتهيأ الذكر ليعلو الأنثى ، وقد لا يعلو الذكر الهرم أنثاه المرة الأولى من غير أن يقبلها ، ولكنه يعلوها بعد ذلك دون أن يقبلها سلفاً ، أما شباب الحمام فإن الذكر منه لا يعلو الأنثى إلا أن يقبلها أولا . ومما هو من خصائص الحمام أنه حين لا يكون هناك ذكر فإن اناثه تعلو الواحدة الأخرى بالتبادل ، بعد أن يقبل بعضها بعضاً ، كما يفعل الذكور . وإذ لم يكن من الممكن أن تلقح الواحدة منهن الأخرى ، فإنها تبيض بيضاً أكثر عدداً من البيض الخصيب ، ولكن لا تخرج منه فراخ ، ولكن ما ينتج من البيض هكذا يكون بيضاً رائقاً »[2].

ومن هذه المقارنة نرى أن نص الجاحظ أغفل التفصيلات ، واكتفى بالمعانى الرئيسية ، وهى الظاهرة التى نراها فى كثير من هذه النصوص ، كما نرى من هذه المقارنة أيضاً أن قوله : « وكان فى أكثر الظن . . . الخ » هى من تعليق الجاحظ لا من كلام أرسطو .

(يتبع)

(١) ٣ : ١٧٧

(٢) Histoire des Animaux, v. II, p. 26b - 26?